

البنية الصوتية للألفاظ العربية على ألسنة طلاب معاهد اللغة العربية

الأستاذ/عزالدين مصطفى جلولي.

المركز الجامعي بالمدينة.

المقدمة

يكتسي موضوع المداخلة أهميته من أهمية النطق في الغايات التعليمية العامة الأربعة لتعليم اللغة أية لغة: النطق والسماع السليمين، والكتابة الصحيحة، والفهم والإفهام غير المشوبين. وهذه الأهداف الأربعة كما ترون تتمحور حول الوظيفة التواصلية لظاهرة اللغة، كنظام من الرموز الخطية والصوتية ذات الدلالة التي يعبر بها قوم من الأقوام عن حاجاتهم.

كان ولا يزال اللحن مشكلة تتسرب إلى ألسنة الناس باختلاف شعوبهم وقبائلهم ولغاتهم، حتى غدا اللحن ظاهرة اعتيادية عبَّرَ عنها بعض الألسنيين بالتحول، كخاصية من خصائص الدال في هذا النظام الرموزي؛ (1) فطَبَّعت لغات العالم نفسها مع هذه الانزياحات المتמادية واعتبرتها "شرا لا بد منه".

وكان من حسن حظ اللغة العربية، ولا تعصب هاهنا ولا نرجسية، أن ارتبط بنيان ألفاظها إعرابا وصوتا وكتابة بالوحي، الذي حمل من السماء إلى الأرض رسالة هداية بلسان عربي مبين، عزَّز مكانة اللسان بما للإسلام من خصائص الدوام والبقاء.

إن هذه الظاهرة، ظاهرة ارتباط العربية لغة بالقرآن عقيدة، منح هذه اللغة ميزة لولاها لما بقي للبنية الصوتية للألفاظ العربية على ألسنة الناطقين بها باقية، ولكان أهل هذه اللغة قد اختلفوا على أنفسهم في توصيفها صوتيا اختلافا سيؤدي بهم، في أحسن الأحوال، إلى إقرار تعددية صوتية للحرف العربي الواحد، كما نلاحظه اليوم فاشيا في اللهجات المتنوعة على امتداد العالم العربي من المحيط إلى الخليج. (مثال ذلك حرف القاف، فهو في السودان غينا، وفي اليمن قافا. وحرف الغين في وسط الجزائر - الجلفة وماحولها - ينطق قافا...).

ولأمر ما نشأت الصوتيات العربية في كنف الإعجاز، فغدا علماء اللغة قراء ومقرئين، وعلماء القراءات نحاة ولغويين، في تماه باه يوحى بالنسب الشريف بين هذا وذاك؛ فحفظ علم التجويد والقراءات الحرف العربي صوتا،

وحما الحرف العربي الصوت القرآني رسماً، في تناغم وظيفي ما انفكت عراه إلا بتباعد الثقافة الدينية عن الثقافة الإنسانية منذ "عصر التنوير" وعلمنة التعليم.

ولا يزال حبل التحديات الداخلية والخارجية التي تواجه الصوت العربي على الجرار، ولا يزال الرصد والبحث والتقويم يبدن العاملين في مجال اللسانيات والصوتيات، يسدون ثغرة هنا أو هناك حيناً، ويتسع الخرق على الراقعين أحياناً.

أولاً - تحديد الإشكالية وبيان أهميتها

تتموقع مقارنة البنية الصوتية للألفاظ العربية على السنة طلاب معاهد اللغة العربية بين ثلاثة حقول معرفية هي على التوالي: علم الأصوات، وعلم التجويد والقراءات، وعلم ديداكتيك اللغات، أقانيم ثلاثة قادمة من علوم أخرى أكثر شساعة هي: علوم العربية، والعلوم الإسلامية، والعلوم التربوية. وهي علوم تزوجت عبر التاريخ خير زيجة، وأنجبت نعم الخلف، حمدت الحياة العقلية لسالفينا غب سراهم، فاستضاءوا وأضاءوا، ولا يزال نورهم يسعى بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا...

وها نحن أولاء نعالج من جديد مشكلات عربيتنا في ضوء الفلسفة الثقافية التي أسسوها، والتي ربطت بلا خوف أو ضجر بين تلك الأقانيم الثلاثة في تعليم العربية وفي تقويم النطق بها، فما رانت على ألسنتهم عجمة ولا عي، ولا استحبوا لأجيالهم عوجاً ولا أمتاً، في حين تشهد البنية الصوتية للألفاظ العربية على أفواه الناطقين بها ردة صارخة، تزداد إيلاماً عندما تستفحل المشكلة لتصيب طلاب معاهد اللغة العربية وآدابها في مستوى التعليم العالي؛ لنلقي الصوت العربي صوتاً مشوهاً تتشابك فيه المخارج وتتداخل مع أصوات أعجمية لها خصائص فارقة عن الأصوات في لغتنا.

عندما مارست تدريس مقياسي التيارات الفكرية والمدارس النقدية العام المنصرم، كنت أختبر - في نقاشات مقصودة - قدرة طلاب العربية، بمعهد اللغات وعلوم الإعلام والاتصال، على الاتصال والتواصل بلغتهم الأم، لاحظت مشكلة حقيقية تحول دون امتلاك هؤلاء للقدرة المطلوبة في الحديث بلغتهم، لغة التخصص الذي هم فيه، مشكلة باتوا يعون وجودها ولا يدركون فعلياً كيف الخلاص منها؛ حتى باتوا يرتضون احتقارها في تكوينهم اللغوي، وهم الذين سيكونون بعد حين أساتذة لهذه اللغة في مراحل تربوية حساسة في حياة الأجيال القادمة.

كنت خلال عامي السالف شديد الإصرار على تقويم التشوهات الصوتية التي ألحظتها أثناء حديثي إلى الطلاب داخل الصف وخارجه، وكنت في عملي ذاك ألتقى من طلابي أولئك القبول الحسن، وأتلمس منهم انعطافاً صادقاً خجلاً إلى الصحيح من النطق للألفاظ العربية، عدا قلة قليلة من الطلاب عللت لحنها ذاك تعليلاً لا يخلو من طرافة، كما تلاحظون ذلك في جواب إحدى الطالبات - وكانت تلقي عرضها على زملائها وزميلاتها داخل القسم - عندما نبهتها إلى خطأ "الغنغنة" كلما نونت كما في الأداة "إذاً"، فتلفظها هكذا "إذغ"، فردت علي قائلة: هذا من اللهجات العربية الدارجة في بعض نواحي المدينة!!

ومن جملة هذا التغير في البنية الصوتية للألفاظ العربية ما سجلته من أمثلة حية كانت تطرق سمعي، نحو:

أ - لفظة "الدّرس": فمن خصائص الدال أنها حرف يخرج من طرف اللسان ومن أصول الثنايا العليا، (2) ومن خصائصه أيضا انه حرف مستقل غير مستعل، (3)، ولكنه على السنة كثير من الطلاب، وخاصة القادمين من الساحل الأوسط حرف مستعل يشبه الضاد المطبقة؛ فتكون البنية الصوتية لهذا اللفظ على ألسنتهم هكذا: "الضّرس"، وربما اختلطت الضاد بالحرف اللاتيني (D)، فردمت الهوة بينهما، رغم الاختلاف والتباين.

وهذه المشكلة واقعة أيضا لدى سكان الخليج العربي عندما يلفظون اسم مدينة "دبي"، فهي تخرج من أفواههم هكذا: "ضُبي"!!

ب - صوت الضاد يكاد يكون غائبا كلياً في النطق، رغم حضوره في الرسم، وربما أثر غيابه نطقاً على أسماع الطلاب فاختل الحس الإملائي لديهم في كلمات مملاة عليهم حوت ضادا، لكنها نطقت ظاء فكتبوها ضادا حيناً وطاء حيناً آخر. وهو ما كنت ألاحظه في أوراق الإجابات عن الامتحانات وفي الموضوعات التي يعدون فيها أوراقا.

من ذلك مثلاً لفظة "ضبابية"، فهي عندهم نطقاً "ظبابية"، وعندهم كتابة بين الضاد تارة والطاء تارة أخرى. ولن تستطيع بسهولة أبداً أن تتال نطقاً سليماً لهذا الحرف حتى من أولائك الذين يدركون أنها تكتب بالضاد لا بالطاء، وتلك مشكلة تطّرد لدى التلاميذ وطلاب الجامعات في القطر الجزائري برمته. في وقت تحولت لدى شعوب الخليج الطاء ضادا، فتحدثوا بـ"أبوظبي" هكذا "أبوضبي"!!

ج - ومن أمثلة ذلك أيضاً كلمة "السلام" التي ترد كثيراً على ألسنة الطلاب عندما يلقون التحية، فتراهم لا يحسون مطلقاً بالفارق فيها بين النطق العامي والنطق الفصيح، سواء ألقوا التحية داخل الصف أم خارجه؛ فالسين مستقلة منفحة، تنطق عندهم كالصاد المستعلية المطبقة، واللام في "السلام" حرف مرقق في الأصل مغلظ إذا كان مفتوحاً وسبق بصاد كـ(الصلاة) أو طاء كـ(اطّلع) أو طاء كـ(ظلم) كما هو المعتمد في قراءة ورش عن نافع، لكنها في لفظ (السلام) تأتي غالباً عند طلابنا مغلظة، ربما بفعل السين المتحولة إلى صاد. كما انجر عن تغير صوت السين صاداً تغير صوتي آخر في الميم، فأخذت صفة الشدة رغم رخاوتها ومثيلاتها في (عمرو نل). (4)

ذلك بعض من الأمثلة التي تطرق سمعك وأنت تجول في أروقة المعاهد العربية وأقسامها، إن كان سمعك مما تروى بالصوت القرآني والموسيقى العربية، وإلا فلن تجد في أصواتهم عيباً ما داموا يتحدثون بألفاظ تراها موجودة في المعاجم العربية.

ثانياً - منهجية مقارنة الإشكالية

لم يكن رسدي لظاهرة التشوه الصوتي في بنية الألفاظ العربية على ألسنة طلاب قسم اللغة العربية رسدا يتدرج بتقنيات البحث الميداني الضروري لمثل هذا العمل، على نحو الاختبارات الخاصة وأدوات التسجيل وأجهزة قياس الذبذبات... وما إلى ذلك من وسائل لازمة في تحديد المشكلة، ولكنني كنت في عملي ذاك دائم الرصد والملاحظة، مقتنعا بحاجة ماسة إلى دراسة ميدانية جادة لهذه الظاهرة؛ للخلوص بعدها إلى نتائج علمية ذات إحصاءات مضبوطة.

لذلك كله تتطلب منهجية مقارنة هذه الإشكالية منهاجا وصفيا يعتمد آليات الرصد المسلحة بتقنيات المخابر الصوتية وبما يليه علم فيزيولوجيا الصوت وعلم فيزياء الأصوات من تجهيزات تصلح لبلورة تصور محدد، يراعي توزع الوحدات الصوتية الصغرى "الفونيم" (Phonème)، (5) على محور الأبجدية العربية في كل توضعاتها الإعرابية والموقعية إن صدرا أو حشوا أو كسعا.

ومن اللازم هنا أن تعتمد الدراسة على ما لدى علم الأصوات الحديث من آلات، من ذلك ما يكمل ملاحظة الأذن والعين، أو ما يعرف بـ"البلاتوجرافيا"، أي طريقة "الأحنك الصناعية" (Palatography) (6)، وهناك "الكيموجراف" (kymograph)، الذي هو عبارة عن «اسطوانة تتحرك بدرجة منتظمة وهناك سن تدور حول هذه الاسطوانة، فإذا نطق المتكلم من مكان معين تحركت السن حركات معينة تبعا لطبيعة ما ينطق به، وهذه السن تسجل أثر النطق في خطوط بعضها متموج، وبعضها كثير الذبذبات وهكذا». (7) وهناك "الوسيلوجراف" (Oscillograph)، الذي يشبه جهاز التلفاز، لكنه يلقى الإشارات من ميكروفون أمام فم المتكلم، ويحول الجهاز الموجات الصوتية إلى موجات كهربائية تظهر على الشاشة.

ولعل من الأجدى تدعيم هذه المنهجية في العمل بتقنية لم تر النور بعد، تقنية حدثت عنها شيخ قراء الشام المقرئ محمد كريم راجح، فأقرها شريطة أن يكون معها مشرف مجاز في علم القراءات. والآلية المقترحة عليه كانت تهدف إلى إيجاد عيار ثابت لتقويم القارئ للقرآن، ولا بأس بها في تقويم الأصوات العربية على ألسنة طلابها. ومضمون الفكرة المقترحة أن يسجل المصحف مرتلا بصوت قارئ مجيد، يتلقى قراءته علماء القراءات بالقبول ويجيزونها، ويرفد التسجيل بجهاز حساس آخر يحول الصوت المقروء إلى خطوط بيانية وأشكال خاصة ترسم طبقات الصوت وتضبط المخرج؛ كيما يصار بعدها إلى وضع هذا الجهاز لاختبار سلامة النطق لدى طلاب العربية وتقويم أدائهم الصوتي.

ولقد شهدت في لبنان بعض الورش التي تهدف إلى تدريب الصحفيين -الذين توكل إليهم قراءة النشرات الإخبارية في الإذاعة والتلفزيون- على القراءة الصحيحة، فيستخدم اختبار لطيف لقياس مهاراتهم القرائية من خلال قراءتهم لسورة الفاتحة؛ لعلمهم بأن قراءة هذه السورة يتطلب قدرة ليست متيسرة لكثير من الناطقين بالعربية. ولهذا الأمر أيضا يطلب بعض المقرئين من طلابهم تلاوة سورة الفاتحة صدر كل جلسة تعلم، كتدريب إضافي على رياضة الفك، الذي تتموضع عليه جملة من المخارج الصوتية. وبين الفك ورياضته تنبثق الأصوات صافية من مخرجها، ولهذا قال ابن الجزري في منظومته في علم التجويد:

وليس بينه وبين تركه إلا رياضة امرئ بفكه

ثالث_ الأجوبة المقترحة لحل الإشكالية

إن الحديث عن حلول لمشكلة كهذه يمر عبر عدة أفنية، لا لشيء سوى لأن الطبيعة البنيوية للمشكلة تستدعي ذلك. فليس الحل مرهونا بالمعلم وحده، وليس الحل مطلوبا فعلة من المتعلم دون غيره، وليس الحل في إقرار مقياس دراسي لهذا الموضوع فقط، بل الأمر موكول حله إلى هؤلاء جميعا، كل بحسبه.

فعلى المعلم، وهو القناة الأولى المتحملة لهذا الواجب أن يكون نموذجا واقعيا في مراعاة سلامة البنية الصوتية للألفاظ العربية عندما يقرأ أو يتكلم، وأن يكون موجها تربويا عندما يرى اللحن فاشيا على ألسنة طلابه قارئين أو متحدثين. ولا تمنعته أستاذه من إخضاع نفسه إلى تدريب مستمر وتقويم دائم، وحذا لو كان هذا الأمر بإشراف إدارة المعاهد التي فيها يعلمون.

كما أن هناك دور آخر على الطالب، وهو القناة الثانية في هذا المشروع، يبادر فيه من تلقاء نفسه وإرشاد من أستاذه، فيحاول تلمس الخلل في نطقه حاملا نفسه حملا على ذلك ولو كان فيه بعض المشقة، فإحساس الطالب بالمشكلة وإيمانه بهذا الحل يدفعه إلى اتخاذ ما يلزم من إجراءات لتدريب نفسه على النطق الصحيح باللغة العربية، كما يفعل عندما يحاول التحدث باللغة الفرنسية أو الإنجليزية.

وثالث هذه الأفنية هو البرنامج الدراسي داخل معاهد اللغة والأدب العربيين، المنوطة بها إدراج مقياس جاد وواع للتجويد وأصول القراءة، لا الاكتفاء بمقياس التجويد وحده، إذ لا يرقى هذا المقياس بأهدافه عادة خارج نطاق أحكام النون الساكنة والتنوين، وأنواع الإدغامات والمدود وغيرها مما يبعد بعض الشيء عن التطبيق الفعلي للأصوات العربية مما نلفيه عند متعلمي القراءة القرآنية،(8) التي لا يزال يرونها قارئ عن مثله إلى منتهاه وهو الله عز وجل.(9)

ولقد بادرت وزارة الشؤون الدينية والأوقاف مشكورة بتأسيس معهد القراءات بالعاصمة، وهو تجربة فريدة في تاريخ الجزائر المعاصر، بدأت نتائجها تظهر للناس، وإن كانت لا تزال حبيسة السلك الديني والمساجد. وما نريده لمعاهد العربية أن تفتح أساتذة وطلابا على مثل هذه التجارب بغية اكتساب مهارة النطق الصحيح للأصوات العربية.

الخاتمة

أود تسجيل النقاط التالية في ختام هذه المداخلة:

أ_ من الأهمية بمكان لتطوير تعليم اللغة العربية وآدابها للناطقين بها والمتخصصين فيها إيلاء أصالة الصوت العربي العناية التي يستحقها، وذلك من خلال ربط الدراسات العربية بعلم التجويد والقراءات ربطاً منتجاً، كيما يتمكن خريجو هذه المعاهد من امتلاك مهارة الصوت المقرآن، ولا يكون ذلك إلا بأن يفرض على طلاب العربية تحصيل إجازة في تلاوة القرآن الكريم على يد قارئ مجاز، والطالب وأستاذه في ذلك سيان.

ب_ أدعو مؤتمرنا هذا إلى تبني توصية في بيانه الختامي بضرورة الأخذ بما جاء في النتيجة المذكورة أعلاه، ومن المطلوب أيضاً أن ترفع توصيات المؤتمرين إلى القائمين على التعليم العالي ومخططي مناهجه في الجزائر أولاً وفي بلدان الاتحاد المغاربي ثانياً، كي يأخذ تطوير العربية مجراه أسوة بتعليم اللغات الأجنبية عند أهلها.

ج_ من المؤسف حقاً أن يكون حل مشكلة تشوه البنية الصوتية للألفاظ العربية على ألسنة طلاب معاهد اللغة والأدب منوطاً فعله بمن يمتلكون هذا الحل وهم عنه مبعدون، وأقصد تحديداً أساتذة الشريعة الإسلامية الجامعيين، الذين يعدون في الجزائر بالعشرات، ولكنهم ممنوعون من التدريس الدائم في الجامعات، رغم مؤهلاتهم العلمية، لأمر لا نعلم مغزاه؛ فليس اعتباطياً ألا تتعدى مناصب العلوم الإسلامية في الجامعات الجزائرية كلها أصابع اليدين في أحسن التقديرات، وعلماء الشريعة عندنا يحصون بالعشرات، وحاجات المعاهد إليهم تعد بالمئات.

فرفعا للغبن عن العربية وعن هذه الشريحة من الناس نطالب- من هذا المنبر المحترم- المسؤولين الذين اتخذوا هذا القرار، الذي سيؤدي إلى تفريغ الجامعات الجزائرية من الثقافة الإسلامية كما هو الشأن في تونس الشقيقة، أن يتقوا الله في هذه اللغة وفي هذا الدين، وأن يفوا ثوابت الأمة الجزائرية حقاً كما وفاها الشهداء الأبرار كامل حقها. وفي ذلك فليعمل العاملون.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش

- (1) فردينان دوسوسير: دروس في الألسنية العامة، ترجمة الدكتور صالح القرمادي وآخرون، ص 120، الدار العربية للكتاب، 1985م.
- (2) عبد الفتاح القاضي: الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، ص 390، ط3، مكتبة السوادي، جدة 1411هـ/ 1990م.
- (3) المرجع السابق، ص 392.
- (4) المرجع نفسه.
- (5) الفونيم: "هو أصغر صورة صوتية تصلح في التحليل الألسني، وتبعث صورة الفونيم اختلافات صرفية ونحوية ومفهومية ودلالية..." (في ضربت، ضربت، ضربت: تحمل التاء المتحركة معنى الشخص أي